جروح على جبين الإنسانية
نحو التصالح مع الذات والأرض والسماء

طوني صغبيني

منشورات مدوّنة نينار

www.ninars.com

جروح على جبين الإنسانية

نحو التصالح مع الذات والأرض والسماء

تأليف

طوني صغبيني

"أدون"

منشورات مدوّنة نينار

www.ninars.com

بيروت 2011

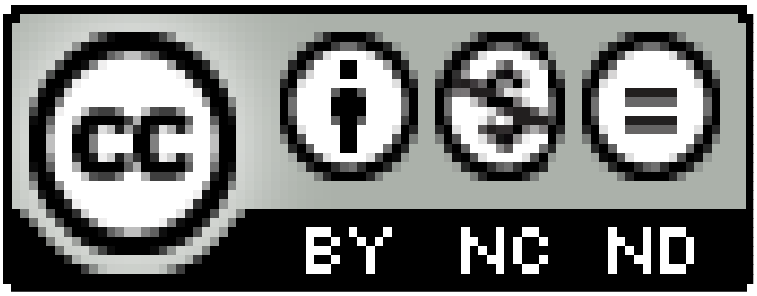

رخصة مشاع ابداعي – بعض الحقوق محفوظة

الكتيّب ومضمونه متوافر تحت رخصة المشاع الابداعي 2012:

حقوق النشر واستعمال النصوص مجّانية لكن يتوجب نسبة المقال الى «مدونة نينار» - طوني صغبيني. يحظّر استخدام العمل لأية غايات تجارية كما يُحظّر القيام بأي تعديل أو تحوير أو تغيير في النص.

Ninar by Tony Saghbiny is licensed under a Creative Commons Attribution-Noncommercial-No Derivative Works 3.0 United States License.
saghbini.wordpress.com. Based on a work at

المحتويات

حول الكتيّب..... ص 5.

- **مقدّمة: عصر الجروح الكبرى.....ص 7.**
- **الفصل الأول: الندبات الأولى.....ص 9.**

1) الأرض، الله، الإنسان.....ص 10.

2) لكن ما هي جروحنا الحقيقية؟.....ص 12.

- **الفصل الثاني: نحيب عشتار.....ص 14.**

1) نفي المقدّس من العالم.....ص 15.

2) "تقنين" علاقتنا مع المقدّس.....ص 16.

3) هل يمكن لشخص واحد اختصار علاقة البشرية بالسماء؟.....ص 18.

4) ولادة الشرّ المطلق.....ص 20.

5) المقدّس لا يقاس بالدولار.....ص 22.

6) فلنتذكّر جرحنا الأوّل.....ص 24.

- **الفصل الثالث: والدة كلّ شيء حيّ.....ص 26.**

1) "سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض".....ص 26.

2) أنحن أبناء هذه الأرض أم أسيادها؟.....ص 28.

3) اقتلاع جذورنا من التراب، فلنتذكّر جرحنا الثاني.....ص 31.

- **الفصل الرابع: حرب على الذات.....ص 33.**

1) هل يحتاج الإنسان لخلاص وجنّة؟.....ص 34.

2) كي لا يكون العلم دين آخر.....ص 36.

3) معرفة الذات، لا إنكارها.....ص 37.

- **كلمة أخيرة: خطوة أولى في درب طويلة.....ص 40.**

حول الكثّيب

Figure 1: هذا الكون الذي يسكن فينا...

"جروح على جبين الإنسانيّة: نحو التصالح مع الذات والأرض والسماء" هي سلسلة من المقالات المنشورة على صفحات مدوّنة نينار بين 5 أيّار و15 حزيران 2011. السلسلة هي المحاولة الأولى من نوعها بالنسبة لنا في هذا المجال الفكري، وقد تناولت الجروح الكونية الكبرى في الفلسفة والعلم والوعي والروح الإنسانية التي تركت آثارها بوضوح على وعينا الجماعي كبشر ولا تزال تساهم اليوم بطريقة أو بأخرى في رسم معالم حياتنا ومستقبلنا.

الموضوع هو جزء من مشروع فكري أكبر هو في طريقه للتبلور والتوضّح خلال السنوات المقبلة، وينبثق من رؤيتنا بأنه هنالك حاجة ماسة لنهضة ثقافية – روحية – اجتماعية جديدة توحّد الأبعاد الإنسانية، الروحية والبيئية في رؤية واحدة بعدما انفصل الإنسان بشكل شبه تام عن ذاته وأرضه وسمائه.

إن النصّ المكتوب للسلسلة هو مشتقّ (وأحياناً منقول عن) أحاديث مكثّفة أجريناها مع عدد من الأصدقاء طوال العامين الماضين، لذلك قد يشعر القارىء في بعض المواضع أن النصّ هو أقرب للكلام المحكي منه للنصوص المكتوبة، مع القليل من التكرار في بعض الأماكن. لذلك نطلب من القارىء(ة) الترفق علينا بما يقرأه في هذه السطور لأن كل جملة فيها هي رحلة فكرية وروحية شاقة، تحتاج بعد لسنوات لتتفتّح وتزهّر بشكل كامل.

تجدر الإشارة أيضاً إلى إن الانتقادات الشديدة الموجّهة إلى بعض المدارس الفكرية على متن السلسلة، خاصة التيولوجيا الإبراهيمية والفلسفات المادّية، هي من باب الصراع الفكري ومن باب مقارعة أيدولوجيات نراها عبئاً على البشرية، وليست بأي شكل من الأشكال انتقاص من كرامة أي إنسان يعتنق هذه العقائد. كل إنسان هو حرّ في معتقداته وإيمانه وقناعاته وهو يستحقّ كل الاحترام كأي إنسان آخر، فمصدر الكرامة الإنسانية لا ينبع من الأيدولوجيا بل من الجوهر الإنساني الواحد غير القابل للتبديل أو التغيير.

تتألف السلسلة من ستة عشر مقال تقريباً موزعين على فصول أربعة نأمل أن تكون فاتحة نقاش فكري عميق حول حالتنا الإنسانية المعاصرة بهدف الخروج بخارطة فكريّة وفلسفية أوضح للأيام الصعبة المقبلة علينا.

أتمنى أن تستمتعوا بقراءة المقالات.

طوني صغبيني

بيروت، في 10 كانون الثاني 2012

مقدّمة

عصر الجروح الكبرى

تاريخ الجنس البشري الحالي ابتدأ على هذه الأرض منذ حوالي 200- 400 ألف عام. خلال هذه الفترة قمنا بكل شيء تقريباً يمكن لجنسنا القيام به؛ اكتشفنا عالمنا أرضاً وبحراً وجواً وفضاءً، دجّنا الحيوان والقمح واخترعنا الأدوات والمحراث والبيرة والناي والسيارة والصاروخ والكمبيوتر المحمول والقنبلة النووية، وبنينا ناطحات السحاب والمدن المليونية والمجتمعات وخضنا الحروب واستعبدنا بعضنا بعضاً وأحببنا وكرهنا وكتبنا الشعر ورسمنا على الحيطان وعزفنا ورقصنا وسجدنا وثرنا وبكينا وضحكنا... وخلال كل ذلك بنينا علاقات مع أنفسنا ومع أرضنا ومع المقدّس، علاقات لا تخلو من البساطة والتعقيد والجمال والقوّة والعنف والحقد والخوف في الوقت نفسه.

خلال هذه الفترة أيضاً، شاهدنا وعينا الإنساني يحبو من الرسوم البسيطة للثيران والرماح في الكهوف المظلمة إلى المؤلفات الفلسفية المعقّدة في ظلال أثينا القديمة إلى المختبرات العلميّة الفائقة التطوّر التي تحاكي نشأة الكون تحت مدينة سرن السويسرية. لـ 200 ألف عام، قمنا بكلّ هذه الأمور وأكثر، ونمى وعينا لدرجة أن ما يتعلّمه الطفل اليوم خلال السنوات الأولى في المدرسة يفوق ما كانت تعرفه حضارات قديمة بأكملها. لقد بنينا لأنفسنا كفصيل حيّ هوية محدّدة المعالم تتميّز أنها قائمة على الوعي والإدراك الذي نتفوّق به على كل الفصائل الحيّة الأخرى. الجنس البشري اليوم هو بحقّ النتيجة الحيّة والهائلة لما أنجزه في الماضي.

لكن رغم أننا، لمئات آلاف الأعوام، كنّا نبني ونعزّز وندرك هويّتنا وعالمنا، ورغم أن درجة تحضّرنا ومعرفتنا اليوم تفوق كل الأجيال الإنسانية السابقة، إلا أننا نعيش أزمة هوية ووعي غير مسبوقة في التاريخ. يمكننا القول بسهولة ان الجيل الذي يعيش اليوم هو أكثر الأجيال المأزومة في تاريخ البشرية... نحن الجيل الوحيد الذي توصّل إلى القدرة التكنولوجية التي تخوّله القضاء على الكوكب برمّته، والجيل الوحيد الذي صعد إلى كواكب أخرى وبحث عن الله وعن مخلوقات أخرى عليها، والجيل الوحيد الذي نقّب باطن الأرض ليكتشف عظام أسلافه ناقضاً بذلك آلاف السنين من الأنبياء والكتب المقدّسة، والجيل الوحيد الذي يخلق الآلهة من كل شيء حوله ويميتها كل يوم أربعون مرّة. رغم ذلك، نحن الجيل الأكثر إلحاحاً – وقلقاً – في بحثه عن إجابة على سؤاله الأكثر جوهرية: لماذا كلّ هذا الوجود يا ترى؟ من نحن ككائنات؟ وبحقّ السماء، ما الذي نفعله هنا على هذا الكوكب الأزرق؟

* * *

رغم كل العلم والمعرفة التي اكتسبناها أصبح لدينا اليوم أسئلة أكثر من أي وقت مضى، وعينا قلقٌ ومأزوم كما لم يسبق له من قبل... هنالك جروح كثيرة تركت ندباتها في عمق وعينا البشري، بعضها بدأ منذ قرون عديدة وبعضها نشاهده كل يوم أمام أعيننا. فما هي هذه الجروح ولماذا يجب أن نتغلّب عليها لكي نتصالح مع أنفسنا ونكمل الطريق؟ هذا ما ستحاول هذه السلسلة الإجابة عليه.

Figure 2: رحلة الألفيتين الأخيرتين: من شجرة الحياة إلى سحابة الفطر

الإجابات طبعاً، تختلف كثيراً بحسب المدرسة الفكرية للمجيب عليها؛ البعض قد يراها في القنبلتين النوويتين على اليابان وفي الهولوكست اليهودي والنكبة الفلسطينية، والبعض قد يراها في محاكم التفتيش الرومانية والحروب الدينية أو حتى في ظهور فيلسوف كفريدريك نيتشه وفي دخولنا عباب البحث حول حقيقة الجينات البشرية ونشأة الكون...ألخ. وهذه كلها جروح كبرى ومؤلمة للكثيرين، لكنها ليست ما سنتحدّث عنه. رغم أنه هنالك جروح حرقت ملايين الأجساد في قنبلة نووية أو في أفران غاز أو تحت القنابل الفوسفورية، إلا أن الجروح الأعمق هي تلك التي حرقت ملايين العقول والأرواح في نارها ولم تكتفي بحرق الأجساد فحسب. هي تلك الجروح التي قتلت علاقتنا بأنفسنا، بأرضنا وبسمائنا وجعلت من ضرب طائرة في برج أو إلقاء قنبلة على مدينة وحرق شعب بأكمله أمر ممكن.

أما لماذا فهم الجروح، التي نسمّيها جروحاً كونيّة عظمى، هو على هذه الدرجة من الأهمية، فذلك لأنه يجيب اليوم على سؤالين أساسين: أين نقف اليوم؟ وإلى أين نتجه من هنا؟ خاصة أن مجتمعنا البشري هو أحوج ما يكون لاتجاه فلسفي-روحي-إنساني جديد في الحياة.

الحلقة المقبلة من السلسلة ستتحدّث عن ماهيّة هذه الجروح وفقاً للمنطق التقليدي في التفكير السائد دينياً وفلسفياً وعلمياً اليوم، وهي جروح تعتقد جهات عديدة أنها غرزت عميقاً في كل ما كان عليه وآمن به الإنسان في الماضي. وقد نسمّيها، لتسهيل المصطلح، الجروح الصغرى. وسنتناول في الحلقات التي بعدها ما نعتقد أنه الجروح الحقيقية التي تعرّض لها الوعي الإنساني من وجهة نظرنا.

جروحنا هي دربنا نحو حقيقتنا، نحو وجهة جديدة لم تطأها قدما إنسان من قبل، فلنشقّ عباب دروبها ولنكتشف ما تخبّئه لنا هذه المغامرة...

الفصل الأول

الندبات الأولى

Figure 3: تمثال العالم والفيلسوف الإيطالي جيوردانو برونو (1548-1600)

حول الصورة: برونو كان أحد أهم العلماء الذين تحدّثوا عن لانهائية الكون والزمان قبل الفيزياء النظرية المعاصرة بـ 400 سنة، وقال أن المقدّس يتواجد في كل بقع الكون بالتساوي وليس منفصلاً عنه في إله. وجدت الكنيسة الكاثوليكية أن علمه وفلسفته متعارضة مع الدين التوحيدي الذي يقول أن الله هو اللانهائي الوحيد في الكون وأن الأخير له بداية (الخلق) ونهاية (يوم القيامة)، وتم إصدار حكم الإعدام بحقه بتهمة الهرطقة في العام 1600 وتم إحراقه حياً في روما في المكان الذي يتواجد فيه التمثال اليوم.

* * *

1) الأرض، الله، الإنسان

يتحدّث العديد من المفكّرين حول العالم عن ثلاث جروح كبرى في الوعي البشري تُرك الإنسان من بعدها مرتبكاً حائراً في اتجاهه.

وفقاً لهؤلاء المفكّرين، أولى تلك الجروح كانت إثبات العالم كوبرنيكوس في القرن السادس عشر أن الأرض هي التي تدور حول الشمس لا العكس، ما عنى وقتها أن **الأرض ليست مركز الكون**. ونحن نعلم اليوم أن الأرض بالنسبة للكون اللامتناهي هي كحبّة غبار صغيرة مقارنة مع مليارات الكواكب والمجرّات والنجوم والثقوب السوداء والبيضاء التي يتألف منها عالمنا.

الجرح الثاني كان مع نظرية تشارلز داروين في "أصل الأنواع" وما لحقها من تنقيبات وأبحاث أثبتت أن الإنسان **تطوّر من البكتيريا ولم يخلقه إله** على صورته لا في يوم ولا في ستة. وفقاً لمعظم المفكرين الدينيين واللادينيين على السواء، غرز هذا الجرح عميقاً في الوعي الديني للإنسان المعاصر لأنه عنى أن الإنسان تطوّر من سلف يشبه القردة ولم يُخلق خصيصاً على صورة الله. وذلك عنى أيضاً أن هذا الإنسان أخطأ باعتقاده أن الله اصطفاه عن باقي المخلوقات، وأخطأ أيضاً باعتقاده أن الخالق تفرّغ لمراقبته ومحاسبته في العالم الآخر، فالإنسان، وفقاً لنظرية النشوء والارتقاء، ليس سوى مجرّد قريب بيولوجي لكل الحيوانات الأخرى.

بالتزامن مع الضربة التي وجهها علم البيولوجيا لمعتقد الخلق الإلهي، كان نيتشه **يعلن في ميادين الفلسفة والأخلاق موت الله** ونقض كل القيم والفضائل الدينية التي فُرضت على المجتمع منذ نشوء الأديان التوحيدية، مقترحاً نظرة جديدة للوجود تتجاوز فكرة الخير والشرّ بالكامل. وهذا كان الجرح الثالث، وهو جرح لا يزال يتفاعل حتى اليوم.

استغرقت مطرقة نيتشه الفلسفية حوالي 200 عام لتصل إلى علم الفيزياء ليعلن الأخير بدوره موت الله على يد أحد أبرز علماء العصر في الفيزياء النظرية والرياضيات ستيفن هوكينغ. يقول هوكينغ في كتابه الأخير "التصميم العظيم" أن العلم بات قادر اليوم على القول أن الله لم يخلق الكون و"أن الانفجار الكبير لم يكن سوى عواقب حتمية لقوانين الفيزياء"، و"أنه وفقاً لقوانين الفيزياء، بمقدور الكون أن يخلق نفسه من العدم". سدّد هوكينغ الضربة القاصمة على الحصن الأخير للديانات التوحيدية: إنه النفّي الكلّي لأي دور لله في خلق الكون وتسيير شؤون الوجود.

الجروح الثلاثة المذكورة تركت أثراً مباشراً على إنسان اليوم، فهي سدّدت ضربات قاسية للنظرة الإبراهيمية للوجود التي كانت تؤمّن للإنسان معنىً وهدفاً ورؤية محدّدة للعالم. هذه الجروح تركت الإنسان مشوشاً ومرتكباً من دون وضوح في المعنى أو الغاية أو الرؤية. حين نفكّر بالأمر، نجد أن التشوّش نتيجة طبيعية بعدما جزمت فلسفة العلم أن وجودنا على هذا الكوكب هو مجرّد صدفة بيولوجية حدثت ضمن قوانين الطبيعة وليس عمليّة خلق إلهية وضعت خطّة كونية وغايات سامية وجنّة ونار. ومن الطبيعي أن يترنّح الدين حين تصبح مفاهيم جوهرية مثل الأخلاق والخير والشرّ تُرى، من بعد مطرقة نيتشه، على أنها عائق أمام الارتقاء الإنساني. ومن الطبيعي أن يصبح الإيمان بخالق مشكلة حين يقول العلم أن الكون وُلد من عدم ولم يكن بحاجة لخالق ليشعل فتيله. ومن الطبيعي أن تفقد الحياة كل معنى حين نقول أن الوجود ضربة حظّ عشوائية، وكذلك الكون، وأن الإنسان مجرّد جسم بيولوجي وآلة عصبية-كيميائية تنتهي كطعام للدود تحت التراب.

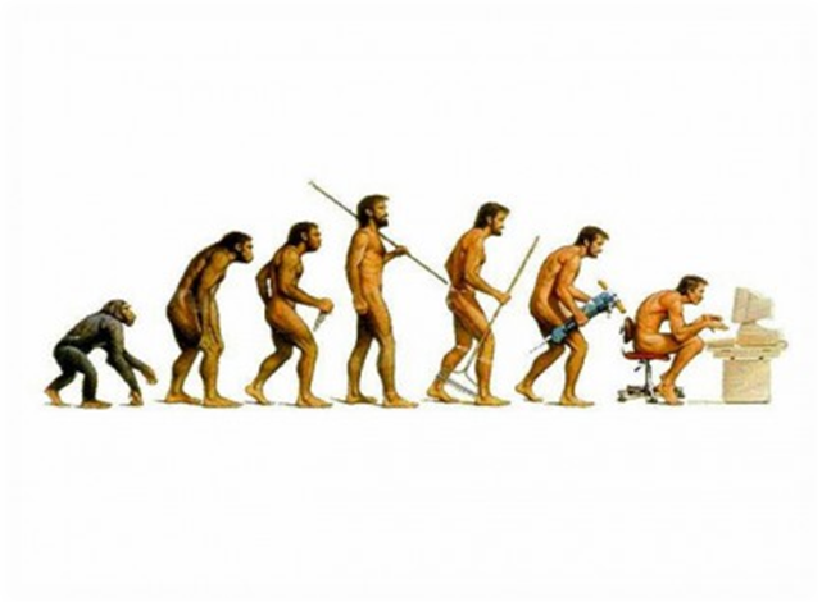

Figure 4: النشوء والارتقاء؟

وفقاً لهذه الجروح الثلاثة، الحياة كانت صدفة لا معنى محدّد لها. والإنسان بالنسبة لها أيضاً، أتى بصدفة، ويرحل بصدفة، ويموت ليتحلّل كأي زهرة أوركيد على هذا الكوكب... هذا الإنسان الهشّ الذي يمكن لعطسة صغيرة في أي لحظة أن تحمل مرضاً يقتله، والذي يعيش على كوكب الصغير يمكن في أي لحظة أن تمحيه عاصفة شمسية أو نيزك صغير عابر في الفضاء. بعد هذه الندبات الثلاثة، تُرك الإنسان من دون غاية وسبب وخالق، تُرك وحيداً كنوتة موسيقية يتيمة عُزفت عن طريق الخطأ في المساحات السوداء الشاسعة لكوننا البارد.

لكن هل هذه الندبات الثلاث هي فعلاً مأساتنا؟ أم هنالك بعد جروح أعمق منها؟

* * *

2) لكن ما هي جروحنا الحقيقية؟

Figure 5: الأديان الإبراهيمية تؤمن بأن الله خلق الإنسان على صورته واصطفاه عن بقية الكائنات الحيّة. الصورة هي تصوّر لله والإنسان في لحظة الخلق - لوحة لمايكل أنجلو على سقف كنيسة سيستين في روما

الجروح التي تحدّثنا عنها في الحلقة السابقة تعبّر إلى حدّ بعيد عن وجهة نظر الإنسان الديني التوحيدي خلال الألفي عام الأخيرة. وهذا الإنسان لا يعبّر في الواقع إلا عن جزء بسيط جداً من تاريخ بشري يمتدّ لمئات آلاف الأعوام. الإنسان التوحيدي وُلد قبل ألفي عام ونيّف فحسب، نشأ في حضن الأديان الابراهيمية (السماوية) وترعرع في كنف الفلسفات المادية المختلفة فيما بعد التي كان بدورها دين من نوع آخر في أكثر من مكان وزمان.

وإنسان الألفيتين الأخيريتين مختلف جذرياً عن الإنسان الذي سبقه. الإنسان التوحيدي كان يؤمن أن الكوكب الذي يعيش عليه هو كلّ الكون، كان يعتقد أن الإنسان مخلوق فريد سلّطه الله على الأرض وعلى باقي المخلوقات، لا بل كان يعتقد أن الله خلق الكواكب والنجوم كلّها لتكون مجرّد زينة في سمائه! كان مقتنع أن وجوده بحد ذاته هو نعمة استثنائية صنعتها أيدي الخالق بذاته. إنسان الألفيتين الأخيرتين أقنع نفسه أنه ليس محور الكون فحسب، بل هو أيضاً الشغل الشاغل لخالقه الذي يترك كل المجرّات ليتفرّغ لحظة بلحظة لمراقبة أصغر هفوات الإنسان اليومية. إنسان الألفيتين الأخيرتين اعتقد أيضاً أن أهداف الحياة وقواعدها واضحة وسهلة لأنها من وضع الخالق نفسه؛ هذه الأهداف تتلخصّ في شكلها بعبادته كإله أوحد، وفي جوهرها في رفض النفس والعقل والالتزام بطاعة رجال الله ومؤسساته حتى يوم القيامة.

والإنسان التوحيدي هو نفسه إنسان الفلسفة المادّية الحديثة، التوحيدية بدورها والإقصائية بطبيعتها. الفلسفة المادية المستوحاة من العلم الحديث استكملت خلال القرون الأخيرة ما بدأته الاديان التوحيدية جاعلة من هوية الإنسان المعاصر هوية مأزومة، لا فرق فيها بين مشكّكين ومؤمنين وملحدين. ثنائية التوحيد والماديّة تبدو من الخارج كأنها طلاق ومواجهة بينما هي في العمق أسوأ زواج وشراكة في تاريخ البشرية. وهي التي صنعت الجروح الحقيقة الأعمق التي سنتحدّث عنها في الحلقات التالية.

الفصل الثاني

نحيب عشتار

Figure 6: من تصوّرات حضارة ما بين النهرين القديمة للإلهة الكونية الكبرى

* * *

1) نفي المقدّس من العالم

تروي إحدى النصوص الكنعانية القديمة التي وُجدت في فلسطين قيام أحد الفلّاحين **بأخذ إذن عشتار** لقطع شجرة صغيرة يحتاج لها لصيانة منزله. المزارع الذي رفع صلاته لعشتار منذ ثلاثة آلاف عام، وعد "ملكة السماء" بإعادة زرع عدّة أشجار في المكان نفسه فيما كان يقدّم لها قرابين من البخّور والفاكهة عربوناً يدلّ على صدق نواياه.

النصّ القديم هذا، الذي قد يراه البعض سخيفاً أو دليلاً على خرافات الأقدمين، هو في الواقع من أجمل ما يعبّر عن علاقة الإنسان القديم بأرضه التي يعيش عليها. فهو كان يرى أن الشجرة التي تقف أمامه على باب الغابة، هي فيض مادّي للمقدّس عبّر عن نفسه بالخشب والورق والثمر، وليست مجرّد قطعة من الخشب للتحطيم والاستغلال. الشجرة التي تقف أمامه هي مخلوق حيّ مثله يجب معاملته بالاحترام والتقدير الذي يستحقّه. وهي فوق ذلك كلّه، ليست ملكه ليأخذها ويستهلكها من دون سؤال، بل هي ملك الإمّ الكونية الكبرى التي تتجاوز الزمان والمكان والأجيال، هي ملك الطبيعة نفسها، هي ملك ما هو أعظم منه، ما هو أجمل من إزميله حين ينحتها، وما هو أقوى من حدّة فأسه حين يقطعها. وأكثر من ذلك، فهو وإن اعترف بأن الضرورة والقدرة تسمح له بأن يقطع الشجرة ويستعملها لقضاء حاجاته، فهو يفعل ذلك ضمن علاقة أخذ وعطاء مع الطبيعة ومع المقدّس: يشكر المقدّس على هداياه، ويعد الطبيعة بردّ ما أخذ منها. وفوق كل ذلك، يبرهن للاثنين صدق نواياه ومعتقده عبر صلوات جميلة وقرابين قيّمة يقدّمها من صلب حياته، قرابين مشغولة من عمل يديه وعرق جبينه، مجبولة بتقديره للطبيعة وعرفانه للجميل، يقدّمها مبتسماً ومجاناً، رغم حاجته لها.

كان الإنسان القديم يرى العالم حيّا، مقدسّاً، جميلاً، جدير بالاحترام والاهتمام.

Figure 7: التصوّر الكنعاني القديم لأثيرة (أو عشيرة)، الأم الكونية الكبرى التي تطعم كل الكائنات من خيرها. المصدر: canaanitepath.com

هذه العلاقة مع العالم المادّي ومع المقدّس، بعد تنقيتها مما يمكن أن يعلق بها من خرافات أو خوف، هي أسمى العلاقات لأنها علاقة ابن بوالدته، علاقة عطاء وأخذ ومحبّة واحترام متبادل لا علاقة مستغِل (بكسر الغين) بمُستَغَلّ (بفتح الغين)، علاقة تقوم على تقدير عطايا الأرض والسماء لا على استغلال الأرض والخوف من السماء.

كان الإنسان القديم يرى المقدّس في كل شيء حوله؛ رأى هبات الآلهة في الأنهار والشمس والألوان والرقص والموسيقى، ورأى الروح العظمى تتجلّى في نفسه كما في الحيوانات والشجر والصخور. لكن هذه النظرة لم تدم طويلاً.

عمليّة سلخ القدسيّة عن العالم المادّي من حولنا بدأت فعلياً حيت أتت الأديان السماوية لتفرض إله رهيب واحد، بعيد منفصل عن الكون والوجود. لم تكتفِ الأديان الجديدة بنفي المقدّس من العالم فحسب، بل حوّلت رؤيتنا للعالم المادّي حولنا من التطلّع إليه كأرض مقدّسة جميلة نتشاركها مع الآلهة نفسها، إلى مجرّد صخرة مادّية خالية من المعنى لا نعرف عليها شيئاً من المقدّس إلا بالركوع على الركبتين. أقنعتنا تلك الفلسفات أن العالم المادي سلبي بطبيعته لأنه مليء بالشهوات والإغراءات التي أسقطتنا من الجنّة، وقالت لنا أنه مجرّد محطّة مؤقتة تم إرسالنا إليها مكرهين، بل أعلنت أننا سنبقى فيها مكرهين بانتظار جنّة أو جحيم موعود.

نفي المقدّس من العالم هو جرحنا الحقيقي الأوّل الذي ترك عواقب وخيمة على وعينا البشري. نتحدّث عنه أكثر في الحلقة التالية.

* * *

2) "تقنين" علاقتنا مع المقدّس

Figure 8: بيتنا ليس مجرد صخرة في الفضاء

كان لطرد القدسيّة من العالم الحيّ عواقب وخيمة على وعينا البشري. بعد قرون وقرون من الوعظ والفرض بقوّة السيف وبطش محاكم التفتيش، تحوّلت نظرتنا لأنفسنا من رؤيتها على أنها قبسة نور من شمس المقدّس، إلى رؤيتها كعبد لا يجمعها أي رابط مع السماء أو الأرض. بات اعتبار أنفسنا على أننا من نفس جوهر

المقدّس بمثابة تجديف، وتحوّلت علاقتنا مع العالم الأسمى إلى علاقة زجرية إكراهيّة تشبه علاقة الأخ الأكبر بمواطني أوقيانيا الخائفين في رواية 1984.

لم يكن هنالك في البدء مسافة تفصلنا عن السماء وعن الآلهة نفسها، كنا نرى القدسيّة داخلنا كما كنا نلمسها في الطبيعة من حولنا، حتى أتت الأديان التوحيدية لتقنعنا أن المسافة بين الإنسان والمقدّس هي شاسعة غير قابلة للردم، بل إن مجرّد التفكير بذلك هو، بالنسبة لها، كفر وهرطقة.

حين يكون المقدّس في كل شيء حولنا، لا نكون بحاجة لمؤسسات دينية "وسيطة" وكتب منزلة وأنبياء ورسل يعملون كقنوات بيننا وبين الإله البعيد المنزوي عن العالم... بل تكون علاقتنا كبشر مع الماوراء علاقة مباشرة، تجريبية وحسيّة كما هي تجريدية وروحية، علاقة خالية من التعقيدات والأيدولوجيا والنصوص المغلقة وتهديدات العمائم... معظم الأديان القديمة قبل دخولها في لعنة الكهنوت كانت مثال حيّ عمّا نتحدّث عنه هنا؛ كانت الحدود التي تفصل بين الكاهن(ة) والإنسان العادي فيها حدود رقيقة ومتحرّكة. لم يكن رجل الدين سلطة على الإنسان بل قوّة له في المقدّس (لا قوّة عليه عبر المقدّس). المعابد الأولى نشأت لتكون قوّة في العقلّ والأسرار والمعرفة والتقوى والحبّ ولم تنشأ لتوزيع صكوك الغفران ومفاتيح الجنّة. في معظم الأديان القديمة، لم يكن هنالك من كلمة "دين" في اللغة، لأن الروحانية كانت جزءًا من الحياة لا فريضة أُنزلت عليهم من فوق، وكان ربّات وأرباب المنازل هم من يقومون بمعظم الطقوس الدينية الأساسية لا رجال الدين.

استعملت الأديان التوحيدية أساليب كثيرة للقضاء على علاقتنا بالمقدّس وتقنينها، ونجحت في نهاية المطاف في جعل المؤسسة الدينية القناة الوحيدة لتجربة روحيّة ضيّقة يقبع على الطرف الآخر منها إله مهووس بحركات التسبيح والتكبير. علاقة البشر مع المقدّس تم تحجميها حين أتت أديان قالت أنه هنالك كتاب مقدّس واحد، نهائي، أزليّ لا يتغيّر، تحوي صفحاته القليلة كل حقائق الكون وكل الأجوبة لأسئلة لم تخطر على بالنا بعد. الإقفال على المقدّس بين دفّتي كتاب صغير وعقول طبقة مغلقة من رجال الدين قضى على كل إمكانية لفهم العالم الأسمى في سياقه الحقيقي – سياق الحياة نفسها لا سياق رفوف المكتبات وسيوف المصلّين.

هذا الإقفال والتقنين قضى على كل إمكانية لتطوير علاقتنا بالبعد الروحي وفهمنا له، وألغى كل المساحة الحميمة بين الإنسان والمقدّس لأنّه جرّدها من التجربة الشخصية والدينامية المتحرّكة التي تختلف باختلاف الأشخاص والزمان والمكان. لقد جعلها علاقة مغلقة محدّدة مسبقاً بعقد ديني مجحف لم يكن الإنسان طرفاً فيه.

المشكلة الأكبر من هذه الناحية هي أن تحجيم علاقتنا بالمقدّس كان المدخل للسيطرة على جميع نواحي الحياة الأخرى. فبعدما اطمأنت الأديان التوحيدية على أن المقدّس منفيّ في أقبية كتبها الكئيبة، انتقلت للهيمنة على الأخلاق والقيم والتشريعات والقوانين والعادات الاجتماعية، مكمّلة بذلك خناقها على حيوية المجتمع البشري في جميع الميادين. بعدما كان الإنسان والطبيعة من حولنا هما مصدر الأخلاق والحقيقة، أصبحت كلمات معدودة منقولة بخطّ اليد هي المصدر. وبعدما كانت التجربة الحسّية، الروحية، الباطنية، الحرّة، المباشرة، والحميمة، هي حبل الصرّة الذي يجمعنا ببُعدنا الأسمى، باتت حركات ميكانيكية، نخوضها راكعين أو ساجدين، نُعلن فيها تسليم أنفسنا لعبودية أبديّة، هي طريقنا الوحيد للتطلّع نحو السماء.

أو بعد ذلك نشكّ، بأنه لا جرح لنا مع المقدّس؟

هذا الجرح لا ينته هنا، بل يحفر أعمق من ذلك بعد...

* * *

3) هل يمكن لشخص واحد اختصار علاقة البشرية بالسماء؟

موسى هو أوّل نبي إبراهيمي فعلي بعد إبراهيم نفسه. وفقاً للتوراة، بعدما أخرج الله (يهوه) اليهود من مصر وقادهم إلى جنوب كنعان (فلسطين)، كان أوّل أمر من الله له كنبي أن "يقتل جميع الكنعانيين، كل رجل وامرأة وطفل" (أمره بتنفيذ أول إبادة جماعية في التاريخ، الأمر الذي نفذه موسى بحذافيره، قرية بعد قرية، كما تخبرنا التوراة) - سفر التثنية 7.1-2; 20.16-18

إن جرحنا مع المقدّس يبدأ كما سبق وذكرنا من مكانين اثنين: نفي صفة القدسيّة عن الإنسان والعالم المادّي من حوله، وتحجيم علاقته به من علاقة مباشرة وحميمة إلى علاقة هرمية، باردة، مقوننة في كتب ومؤسسات مغلقة على العقل والتاريخ.

ترافقت مع هاتين الطريقتين طريقة ثالثة أكملت ضرب وتحجيم علاقتنا بالمقدّس. هذه الطريقة هي الفكرة المدمّرة لـ"الرسول واحد" الذي يدّعي احتكار العلاقة مع البُعد الأعظم، فيما لا يحرّك قلبه على أرضه الواقع سوى الرغبة برؤية رقاب شعبه – أو شعب غيره – تنحني له.

العلاقة الحقيقية مع المقدّس، بالنسبة لمخلوق شاسع كالإنسان، لا يمكن أن تمرّ عبر تجربة شخص واحد، مهما كان هذا الشخص نقياً أو عارفاً أو مخلصاً (ومعظم الأنبياء الابراهيميين في التاريخ لم يمتلكوا أي من هذه الصفات بجميع الأحوال). المقدّس هو بعد هائل، بُعد يلامس الجميع ويُعلن نفسه بطرق مختلفة مما يتيح للجميع أن يكونوا أصحاب تجربة روحية خاصة. والتجربة الروحية بطبيعتها هي تجربة ذاتية وحميمة. ورغم أن كل التجارب الروحية تنهل من النبع نفسه، إلا أنها تأتي بأوجه وأشكال مختلفة ويختلف فهمها وطرق التعبير عنها بحسب المكان والزمان والإنسان. فبأي حق إذاً، ننفي على أفراد بشرية كاملة حقّهم بتجربتهم الروحية الخاصة ونفرض عليهم تجربة شخص واحد في التاريخ؟ وبأي منطق نعتقد أنه بامكان واعظ في الناصرة أو قائد في مكّة أن يعطي، منذ مئات السنوات، تعريفاً وإطاراً واحداً لما لا يمكن تعريفه وتأطيره (المقدّس) ويفرضه على الجميع كنسخة "صحيحة" إلى أبد الآبدين؟

مع العلم أن هذا "النبي" الذي فرض "نسخته" على الجميع قد يكون صاحب تجربة روحية حقيقية وقد لا يكون سوى زعيم سياسي احترف الخطابة أو ضرب الأعناق.

Figure 9: رسم يعود للعام 1315 يظهر استسلام قبيلة بنو نضير لمحمد بن عبدالله.

حول الصورة: في رواية أخرى مذكورة في السير النبوية، يخوض الرسول معركة مع بنو قريضة اليهود، وبعد استسلامهم يأمر بحفر خنادق طويلة ثم بإعدام كل الذكور والأسرى وبأخذ نساء القبيلة وممتلكاتها كغنائم حرب. تم إعدام 900 شخص من القبيلة بينهم أطفال. بعض المصادر تحاول الالتفاف على الرواية بالقول أن قائد الجيش الإسلامي في المعركة سعد بن معاذ هو الذي قرّر إعدامهم لكنهم يتجاهلون أن السيرة التي تروي هذه الرواية تذكر أيضاً أن النبي باركه حين علم بقراره قائلاً "لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات." (يمكن مراجعة سيرة ابن هشام في هذا الموضوع والعديد من السير الأخرى التي تذكر الحادثة).

* * *

حين قدّمت الأديان الإبراهيمية، الرسل، على أنهم القناة الوحيدة للمقدّس، حرمت الناس من إمكانية التفكير باختبار البعد الأسمى بأنفسهم، وجعلتهم بالتالي سجناء الكلمات التي نطق بها الأنبياء، وقالت أن هذه الكلمات هي نافذتهم الوحيدة لمعرفة الماوراء. المقدّس نفسه، الذي لا بداية أو نهاية أو شكل له، بات سجين كلمات من زعموا أنهم أنبياء.

حين نحجّم علاقتنا مع المقدّس بكلام مزعوم لشخص واحد، سيفوتنا بالتأكيد أن ندرك أن أجمل نافذة لنا نحو العالم الأسمى هي ذاتنا نفسها. في الواقع، إن رُسلاً يعتقدون أنه يمكن اختصار المقدّس والكون والإنسان بكتاب واحد تحميه رايات الجيوش وصرخات الكهنة هم رسل لا يعرفون من المقدّس شيئاً.

إحدى الخطوات الهائلة التي يمكن أن تساهم بالتئام جراحنا مع المقدّس تكمن في الاعتراف بأن حبل الصرّة الذي يربط الإنسان بالسماء والأرض موجود لدى الجميع؛ لدى الفلاح الذي يرقص لأرضه، لدى الأم التي تغنّي لطفلها، لدى الساجد في صومعته كما لدى العالمة في مختبرها، ولدى الصوفي الذي صُلب على بوابة بغداد كما لدى الفيلسوفة التي وقفت يوماً في شوارع الاسكندرية لتدافع عن الحقّ فيما كانت الظلمات تنتزع جلدها وتحرقها مهلّلة. لا يمكن اختصار علاقة البشرية مع السماء بشخص واحد. لا يمكن.

* * *

4) ولادة الشرّ المطلق

Figure 10: بافوميت، أحد رموز الحكمة الباطنية القديمة، حوّلته الأديان الإبراهيمية إلى رمز للشيطان والشر المطلق

* * *

من مظاهر إفساد علاقتنا مع المقدّس أيضاً وأيضاً، هو قيام الأديان التوحيدية باختراع الشرّ الكوني المطلق وتقديمه على أنّه جزء أساسي ولا يتجزأ من الوجود. اسمه؟ الشيطان.

الثنائية الأولى للخيّر (النور) والشرّ (الظلمة) لم تكن فطرة الإنسان كما قد يتبادر إلى الذهن، بل كانت أيدولوجية الدين التوحيدي الأوّل في التاريخ: الزرادشتية. معظم الشعوب القديمة، خاصة في العصر النيوليتي، كانت تعترف بوجود الشرّ، وكانت تؤمن بأرواح وقوى كثيرة لا تنوي خيراً للبشر، لكن بنية الكون بالنسبة لها لم تكن قائمة على ثنائية تصارع الخيّر والشرّ بل على وحدة الوجود بكلّ تلاوينه وحالاته. الحكمة القديمة للإنسان اعتبرت أن الشرّ هو مركّب إنساني نسبي ينشأ في سياق العلاقات بين الناس أنفسها، كما بين الناس وقوى الطبيعة، ولم تراه على أنه حقيقة كونية مطلقة يحكمها شيطان ذا قدرة رهيبة. مفهوم الشرّ المطلق لم يكن موجوداً لديها، كانت تفهم الشرّ في سياقه الواقعي وكانت تعرف أنه بالنسبة للطبيعة، بالنسبة للكون، لا يوجد شرّ مطلق بالمعنى الذي نعطيه له اليوم. على سبيل المثال، إن كان هنالك نمر جائع يطارد غزالاً، وإنسان جائع يطارد النمر والغزال معاً، أين الشرّ المطلق في هذه المعادلة؟ هل الشرّ هو أن يأكل النمر الغزال، أم أن يحتضر النمر جوعاً، أم أن يقتل الإنسان الاثنين أم أن يحتضر جوعاً كي لا يقتل أي مخلوق آخر؟ الشرّ في هذه المعادلة نسبي ويختلف بالنسبة لكل طرف في هذه المعادلة.

الفيلسوف اليوناني النيو-أفلاطوني سالوستيوس، يعبّر عن نظرة القدماء للشرّ على أنه غير مطلق، وغير كوني، يقول: "إن الآلهة، كونها خيّرة، ومسؤولة عن كل الأمور في الكون، يعني أنه لا يوجد هنالك شرّ كوني (أو بنيوي)؛ فكما الظلمة ليست موجودة بذاتها بل هي تأتي فقط بغياب الضوء، يأتي الشرّ فقط حين يغيب الخير (...) لا يوجد شرّ كوني في العالم. في نشاطات الإنسان فقط يظهر الشرّ". (سالوستيوس، حول الآلهة والكون، مترجم من النصّ الإنكليزي).

إن الإيمان بعدم وجود شرّ كوني يعني أن الإنسان نفسه هو الذي يتحمّل مسؤولية شروره لا قوّة ماورائية أعظم منه اسمها "الشيطان"، وهو بالتالي المسؤول عن دفع ثمن أخطائه وإصلاح نتائجها والتعامل معها بالطريقة الصعبة على أرض الواقع. وفي الحقيقة إن الإيمان بـ"الشيطان" يجرّد الآخرين من جزء من إنسانيتهم. كبشر، نحن نرتكب الأخطاء والزلّات ونحاول التعلّم منها وإصلاحها وتجنّبها، هذا جزء من طبيعتنا. لكننا ننزع هذا الجزء من إنسانيتنا حين نؤمن بأن أخطائنا هي "رجس من عمل الشيطان"، هذا تنصّل ورمي للمسؤولية وجلد للذات ولا يساعدنا أبداً على فهم ضعفنا البشري والتعامل معه.

خلق مفهوم "الشرّ الكوني" المتمثّل بالشيطان كان ضربة قوية لعلاقتنا مع العالم الروحي لأنه عنى أن الكون يحوي قوّة شرّ وقذارة تريد للإنسان كل البؤس والمعاناة والتعاسة. "الشرّ الكوني" كان ضربة أيضاً لعلاقة الإنسان مع كل العالم المادي من حوله وصولاً إلى عقله وجسده نفسه. فهذا المفهوم يعني أن العالم المادي هو ملعب الشيطان الذي يمارس فيه نفوذه وشروره وإغراءاته أينما التفتنا.

Figure 11: "ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما" ، حديث منسوب للنبي محمد، وهو من الأمثلة القليلة على ارتباط مفهوم الشرّ الإبراهيمي بمفاهيم أرضية لا تمتّ للسماء بصلة

مفهوم الشرّ المطلق لم يفرض نفسه على رؤيتنا الكوزمولوجية فحسب، بل على حياتنا الاجتماعية والسياسية والثقافية والروحية أيضاً. ما يندرج ضمن إطار "الشرّ" توسّع ليشمل في أحيان كثيرة العقل، الجسد، والآخر المختلف. هذا المفهوم ثنائي بطبيعته (خير\شر)، ولأنه مطلق فهو يقوم على الأضداد ويغذّي الصراع الأبدي بينها لأن جوهر المفاهيم المطلقة هو أن ينتصر أحد المفهومين انتصاراً نهائياً على الآخر.

وهنا يتضح لنا جزء آخر من المشكلة، هي أن مفهوم الشرّ المطلق هو مفهوم مسبّب ومغذّي للنزاعات بطبيعته. ولادة الشرّ الكوني وثنائية الخير \ الشرّ أعلنت بداية عالم الثنائيات المتصارعة التي حكمت حياتنا ونظرتنا للوجود لقرون وطحنت إنسانيتنا تحتها. الثنائيات المنبثقة من ثنائية الخير والشرّ شوّهت نظرتنا لكلّ شيء وفرضت بالتالي صراعاتها علينا: نجدها في ثنائية العالم المادّي "القذر" والعالم الروحي "النقي"، في ثنائية الأرض والسماء، الإنسان والطبيعة، الإيمان والعقل، الحلال والحرام، المقدّس والمدنّس، الموت والحياة، العلم والدين، دار الحرب ودار السلم، المؤمن والكافر، الـ"نحن" والـ"هم"... ثنائيات تعيش معارك أزلية، الانتصار فيها مستحيل، ولا خروج منها سوى بإفناء أنفسنا أو إفناء الأخرين... أو تجاوز مفهوم الشرّ المطلق!

اختراع الشرّ الكوني أفقدنا الصلة مع الكثير من الأمور التي تشكّل جزءاً من طبيعتنا، وجعلنا نعادي قسراً أجسادنا وعقولنا وجيراننا وأرضنا وحريتنا وسمائنا لأنه أقنعنا أننا أمام خيارين لا ثالث لهما: أو ندمّر أغلى الأجزاء فينا على هذه الأرض لكي نربح جنّة موعودة هناك، أو نواجه نار الله في العالم الثاني وخناجر أتباعه في هذا العالم.

المقدّس الحقيقي لا مكان فيه لشرّ مطلق. كيف يمكن أن نتصالح مع المقدّس إن لم نؤمن أنه، وبكامله، خيّر وجميل؟

* * *

5) المقدّس لا يقاس بالدولار

لا يكتمل نقاشنا حول نفي المقدّس من العالم من دون الحديث عن تأثير الفلسفات المادية ومساهمتها في ذلك. الفلسفات المادية، بمختلف تلاوينها، من أقصى الليبرالية إلى أقصى اليسار، استكملت ما بدأته الأيدولوجيات الإبراهيمية التوحيدية: الإثنان اتفقا على أن الإنسان والأرض والعالم المادّي لا يشكّلان جزءاً من مقدّس ما، ولو أن إحداهما قالت أنه قابع في مكان بعيد فيما أعلنت الأخرى أنه غير موجود على الإطلاق.

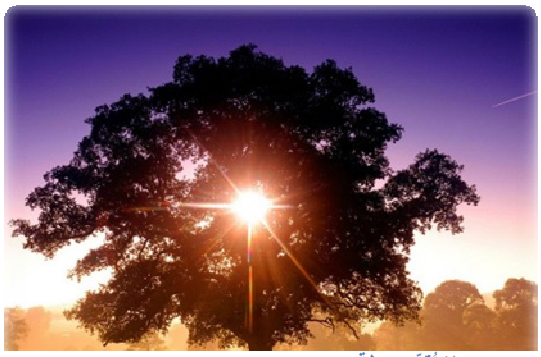

Figure 12: لا تُقدّر بعملة

الفلسفات المادّية لم تر الكوكب سوى صخرة كبيرة يمكن

تفتيتها وحفرها وردمها واستغلالها وتدميرها وبيعها بثلاثين من الفضّة، ولم ترى الإنسان سوى قوّة عاملة يمكن التسلّق على أكتافه لملىء الجيوب وتعبئة الغرور. الفلسفات المادّية تسخر منّا إن قلنا أن المكان الذي نعيش فيه هو بيتنا المقدّس وأمّنا الكبرى التي نولد من رحمها ونعود إلى ترابها بعد الممات.

بالنسبة لمعظم الفلسفات المادية، الوجود هو صدفة كيميائية لا معنى لها. الشجرة التي بجّلها الزارع الكنعاني القديم المذكور في المقال الأوّل من السلسلة، والتي رآها تجلّ لعظمة المقدّس، ليست بالنسبة للفلسفات المادية سوى قطعة أخرى من الخشب للبيع والربح. تدمير الأرض وما عليها من مخلوقات أخرى، في نظر الفلسفة المادية، لا يستوجب أي شعور بالذنب أو واجب بالتعويض؛ التدمير من أجل الربح هو شعارها.

في ما يتعلّق بالعلاقة مع المقدّس، ومن خلاله علاقتنا مع أنفسنا ومع الأرض، ذهبت الفلسفات المادية إلى مكان أبعد من فلسفة "العبيد" الإبراهيمية؛ هي تقول أننا لسنا سوى آلات بيولوجية من لحم ودم خالية من الروح والمعنى، هي تقهقه إن قلنا أننا إناءً ينضح منه النور المقدّس... أقنعتنا الفلسفة الماديّة أن كلّ ما يحرّكنا ليس سوى الرغبة بالتكاثر والرغبة بالتسلّط على الأرض وعلى بعضنا البعض.

من البديهي أن تكون الفلسفات المادية إذاً متراجعة اليوم أمام الفلسفات الدينية، فهي في جوهرها عاجزة عن إعطاء معنى للحياة والكون. وكيف يمكن لها أن تخرج بمعنى إن كانت ترى أن المحرّك الأوّل والوحيد لكلّ الوجود هو صدفة كيميائية، ثم نشوة بيولوجية، ثم سلطة ومال وسيارات برّاقة؟ وكيف يمكن لها ألا تستكمل جرحنا مع المقدّس إن كانت تردّد ليل نهار أن كوننا هو مجرّد مكان رهيب وسوداوي، بارد وصامت، تحكمه الأحداث العشوائية وتسلّط مخلوقات على أخرى؟

* * *

حول الصورة: جيمس لوفلوك، عالم إيكولوجي بريطاني وُلد عام 1919، أخذ شهرة واسعة في العقد الأخير جراء طرحه "فرضية غايا" التي تقول أن الأرض من منظور إيكولوجي، بتكاوينها الفيزيائية والكيميائية وأساليب التعديل البيئي الأوتوماتيكي التي تحصل فيها، ليست مجرّد صخرة بل كائن حي "واعي" يوجّه عمليات الضبط في الاتجاه الأفضل لحياته، حتى ولو اقتضى ذلك القضاء على أنواع حية بأكملها. نظرية غايا الإيكولوجية ومعها على الطرف الآخر نظريات الكوانتوم والأوتار في الفيزياء النظرية، شكّلت قطيعة مع فلسفة العلم النيوتونية-الأينشتاينية التي سادت في القرنين الأخيرين وأعادت الوصل بين العالم المادي والروحانية. المزيد حول هذا الموضوع على مدوّنة نينار في المستقبل.

* * *

الفلسفات المادية كان ولا يزال لها وقع كبير على وعينا الجماعي كبشر؛ استطاعت تحويل علاقتنا بكل شيء من حولنا إلى علاقة ربح وخسارة، علاقة هيمنة وخضوع وإفادة واستفادة؛ هشّمت علاقتنا بكل شيء لأنها جرّدتها من كل المشاعر والقيم الإنسانية التي لا يمكن إيداعها في البنوك وصرفها ببطاقات الائتمان.

الفلسفة المادّية قالت لنا أن تطلّعنا نحو الأرض بحثاً عن الحبّ هو سخافة، وأن تطلّعنا نحو السماء بحثاً عن الحكمة هو خرافة. قالت أن تطلّعنا إلى داخلنا للبحث عن حقيقة هو مضيعة للوقت، وأن تطلّعنا نحو جيوبنا، نحو أحزابنا وقادتنا وأيقوناتنا وشاشاتنا الباردة هو كلّ الإفادة... الأمر الوحيد الذي أضعناه في كلّ ذلك كان ذاتنا وفطرتنا وحكمتنا وحقيقتنا الأولى...

* * *

6) فلنتذكّر جرحنا الأوّل...

بغضّ النظر عمّا يمكن إيجاده من أسباب سوسيولوجية وتاريخية لنشوء وهيمنة الأيدولوجيتان التوحيدية والمادية خلال الألفيتين الأخيرتين، تبقى النتيجة واحدة: فيما يتعلّق برؤيتنا وعلاقتنا مع المقدّس، كان وقع هاتين الفلسفتين مدمّراً. إن جملة "لا إله إلّا الله" هي خير اختصار للمعتقد التوحيدي الإبراهيمي، لكنها أيضاً خير اختصار لجوهر فلسفة تبدأ جملتها الأعظم بحرف النفي "لا"، معلنة بذلك، منذ اللحظة الأولى، عزمها، لا على الإغلاق على المقدّس ضمن رؤيتها الضيّقة فحسب، بل أيضاً على شنّ حرب على أي رؤية ثيولوجية مختلفة عن رؤيتها. وهذا ما فعلته منذ ألفي عام حتى اليوم.

ألفي عام من الحصار الذي فرضته جلابيب الإله الواحد وبذلات السوق الواحد كانت كافية لتهشيم علاقتنا بالمقدّس ومعه تصفية لحميميّة علاقتنا بأنفسنا وبالوجود. خلال هاتين الألفيتين، انتقلت العلاقة مع المقدّس من علاقة إيجابية وتجريبيّة وحسّية ومتعدّدة إلى علاقة خوف وطاعة وانتفاع ولون واحد. ضرب علاقتنا مع المقدّس ونفيه من العالم، ليس مجرّد نقاش فلسفي أو هزيمة أيدولوجية لفكر مقابل آخر، بل هي هزيمة لوعي إنساني تاريخي وأسلوب حياة كامل أثّرت بشكل مباشر على كيفية تعاملنا مع ذاتنا، مع بعضنا البعض، مع حضارتنا الإنسانية نفسها ومع الكوكب الذي أتاح لنا وجودنا.

اليوم، الكثير من العقول المستنيرة ترفض الاعتراف بوجود المقدّس لأنها تعتقد أن العلاقة الروحية مع العوالم المرئية وغير المرئية تأتي فقط على شكل تلك التي أقامتها الأديان الإبراهيمية خلال القرون الماضية. ارتباط كلمة "المقدّس" بجروح تاريخية مثل الحروب الدينية، الاضطهاد، معاداة الفلسفة والعلم والفنّ والجسد والأنثى والعقلانية، توهمنا خطأ بأن كل ما يتعلّق بالمقدّس يستجلب حكماً كل هذه الأمور. لكن فلنقولها بصراحة، إن ما اعتقدناه علاقة مع المقدّس في ظلّ هيمنة الأيدولوجيا الإبراهيمية كان تدميراً للمقدّس، كان تهشيماً له، كان تحجيماً وعمليّة قتل عن سابق إصرار وتصميم وأكبر إهانة وُجّهت لعلاقتنا مع المقدّس في التاريخ.

المقدّس، مهما كان تعريفنا له، هو أعظم بكثير من تجارب بائسة في التاريخ. المقدّس هي أنتِ وأنا وكل موجود وهي اللغز الذي يحرّك كل الوجود. هي دفء شمس الصباح وهي غموض الليل والهمسة العابرة مع الرياح. هي ذاك اللحن الشجي والترنيمة التي تُتلى من دون كلمات، فهي الصمت وهي صوته. هي قلب هذا الوجود ونوره وعقله الأسمى. هي السبب الأوّل، وهي النتيجة. هي المُراقب الهامس الذي لا حدّ له أو بداية أو نهاية. المقدّس هي كلّ هذا ولا شيء منه، هي كلّ شيء ولا شيء بذاته، هي في كل شيء وكل شيء منها، هي المعلوم أمام ناظرنا والمجهول الذي لا ندركه بحواسنا، هي الواحد وهي الكلّ... هي أشياء كثيرة لا تحتكرها صفحات كتاب ولا أفكار بشر... هي كل ما نعرف أن نعبّر عنه وهي ما لا نجد كلمات أو صورة لوصفها... هي كل هذا وأكثر... فكيف لنا أن ننفيها من ذاتنا وهي ذاتنا؟ كيف لنا أن ننفيها من هذا العالم وهي جسد هذا العالم وروحه؟

"نفي المقدّس من العالم"، فلنتذكّر اسم جرحنا الأوّل...

الفصل الثالث

والدة كلّ شيء حيّ

* * *

1) "سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض"

من قراءة الحلقات السابقة يمكن الاستنتاج بوضوح أننا نعتبر أن تدمير علاقتنا بالمقدّس، عبر الطرد والنفي والتقنين والنبوّة وفكرة الشرّ المطلق، لم يفسد علاقتنا مع السماء فحسب، بل مع الأرض أيضاً. اعتبار الأرض

مجرّد خادم مسخّر لرغباتنا، هو نقطة التقاء أخرى بين الفلسفات الإبراهيمية وتلك المادّية، وهو جرحنا الثاني. فلنتحدّث عن ذلك.

تمثّل قصّة الخلق إحدى أهم ركائز الأديان الابراهيمية، فهي تحدّد هوية الخالق والمخلوق وكيفية نشأة الكون وما هو الهدف من الوجود، كما أنها تخبر الإنسان ما ترى أنه يجب عليه أن يفعله في الحياة لكي ينال رضا الإله والحياة الأبدية. قصّة الخلق تختصر أيضاً اعتقاد الأديان الابراهيمية بأن **الإنسان هو محور الكون ومركزه؛** قناعة كانت بحقّ الجرح الثاني على جبين البشرية.

قصّة الخلق اليهودية والمسيحية والإسلامية، تزعم أن كلّ الطبيعة والمخلوقات الأخرى الموجودة حولنا، إنما هي موجودة فقط بهدف أن نستغلّها ونسخّرها لنا. يقول الله في سفر التكوين التوارتي (26-30):

"نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلّطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الارض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الارض. فخلق الله الانسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكرا وانثى خلقهم. وباركهم الله وقال لهم اثمروا واكثروا واملأوا الارض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الارض . وقال الله إني قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزراً على وجه كل الارض وكل شجر فيه ثمر شجر يبزر بزراً، لكم يكون طعاماً. ولكل حيوانات الأرض وكل طيور السماء وكل دبابة على الارض فيها نفس حية أعطيت كل عشب أخضر طعاماً. وكان كذلك".

في الفلسفة الإبراهيمية، الله المتسلّط على الكون والإنسان خلق الإنسان على صورته، متسلّطاً على الأرض، على إخوته البشر وعلى بقية الحيوانات. بعد خلق الإنسان يذهب الله خطوة أبعد بعد ويقول له أن مهمّته هي إخضاع الأرض والمخلوقات له، بل يقول له أنه يمتلك الأرض وما عليها ولا ينازعه في ذلك أحد. الإسلام يذهب خطوة أبعد من ذلك أيضاً، فيقول للإنسان أنه حتى النجوم والكواكب نفسها مُسخّرة لرضاه ولم تُخلق سوى لتكون زينة لسمائه. يقول الله في القرآن:

"الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار، وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليل والنهار" (سورة إبراهيم، الآيتان: 23-24).

أيضاً يقول:

"ألم تروا أن الله سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض" (سورة لقمـــان: 20). وأيضاً: "ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا نفضيلا" (سورة الاسراء: 70)، وأيضاً "وسخّر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" (سورة النحل: 12).

جعلت الفلسفة التوحيدية الإنسان محطّ التركيز الوحيد لديها، فهو الشغل الشاغل لله وهو المخلوق الواعي الوحيد في هذا الكون (بالنسبة لها)، وكل الباقي هم مجرّد خدم للإنسان، سواء أكانوا شجرة أو نبتة أو حيوان آخر، تماماً كما أن الإنسان هو مجرّد خادم لله، مشكّلة بذلك تراتبية كونيّة قائمة على الإخضاع والخضوع فقط.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الأديان السماوية، بعكس الأديان الطبيعية القديمة، لا تعترف في نصوصها التيولوجية بوجود روح في الحيوانات، بعكس الاعتقاد الشائع لدى أتباعها. كما إنها تنفي بطبيعة الحال وجود روح أو قدسيّة في النباتات أيضاً. لهذا السبب وجد دعاة النباتيّة في أوروبا في عصور التنوير مثلاً مشقة كبيرة في إقناع مواطنيهم بقضيّتهم إذ كانت السلطات الكنسيّة تنظر إليهم بعين الريبة، بل اتهمتهم أحياناً بأنهم وثنيّون. هذا ولا زلنا نتحدّث عن الحيوانات، فكيف الأمر إن كنّا نقول عن أنه هنالك روح وبذرة من المقدّس في الشجر وفي كل الموجودات. الدين الإسلامي يمتلك التعبير الأشهر والأكثف أيدولوجياً لوصف هذا الطرح: "شِرك". من يعتبر أن المقدّس موجود في أمر آخر غير الله هو مُشرك، وبحسب آيات تقول "اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم" (سورة التوبة، الآية 5)، قد لا يكون من الحكيم أن تقولوا ذلك. أسألوا الحلّاج، لكن هذا موضوع آخر.

ما يهمّنا كخلاصة لهذه الحلقة هو القول بأن العلاقة الهرميّة بين الإنسان والأرض وبقيّة المخلوقات، في الفلسفة الإبراهيمية، ليست مجرّد تفسير أو اجتهاد يمكن تخطّيه، بل هي من صلب هذه الفلسفة. لكن يجب الإنتباه أيضاً، إلى أن هذه الفلسفة هي بدورها تعبير عن نظرة إنسانية سابقة عليها تعتبر أن الإنسان هو مخلوق "أسمى" له الحق بالهيمنة على الأرض من دون التوقّف أي لحظة للتفكير في عواقب ذلك. الفلسفة الإبراهيمية أتت لتعبّر عن هذه الرغبة ووضعتها في سياق ديني – أسطوري، موهمة الإنسان بأن له حقّ إلهي ما بالتسلّط على هذه الأرض. تجميد هذه النظرة الهرمية في فلسفة دينية تعتبر نفسها خارج المكان والزمان، تضعها في مواجهة مباشرة مع أي نظرة إيكولوجية حديثة تهدف لمصالحتنا مع هذه الأرض وإعادة علاقتنا معها إلى علاقة متوازنة تقوم على الاحترام لا على الاستغلال. "سخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض" هو اللمحة الأولى من جرحنا الكبير مع أرضنا، نتحدّث عنه أكثر في الحلقتين التاليتين.

* * *

2) أنحن أبناء هذه الأرض أم أسيادها؟

Figure 13: "سخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض"، أليس كذلك؟

الفلسفات الإبراهيمية والمادّية تمتلك رؤى متشابهة تجاه الأرض والمخلوقات الأخرى؛ رؤى تعتبر أن قيمة الأرض، وقيمة أي شيء أو كائن في العالم، تُقاس بمدى نفعها للإنسان. حتى إن الدعوات للاهتمام بالبيئة المستوحاة من هاتين الفلسفتين تقوم في معظم الأحيان على الدعوة للاهتمام بالبيئة من أجل الحفاظ على المستوى المعيشي للإنسان لا من أجل الحفاظ على البيئة بذاتها. لهذا السبب، من المألوف في الوسط البيئي العالمي أن نسمع الكثير من الكلام عن ضرورة ترشيد استهلاك المياه مثلاً من دون أن نسمع كلمة واحدة عن خطورة انقراض أنواع حيّة أخرى أو عن خطورة إزالة غابة في منطقة نائية ما، إلا إذا كانت هذه الغابة مكان سكن لبشر.

جوهر الأخلاق الإبراهيمية والمادّية من هذه الناحية يقوم على فكرة "النفع" أو "القيمة"؛ قيمة الأرض والمخلوقات الأخرى نابعة فقط من قابليتها للاستغلال البشري، وهذا عكس الفلسفة الإيكولوجية الجذرية التي تقول بأن الأرض والمخلوقات الأخرى لها قيمة بحد ذاتها بغض النظر عن علاقتها مع الإنسان أو قابليتها للاستغلال.

حين ندرس الفلسفة الثيولوجية الإبراهيمية، نجد أنه لا يوجد مكان للطبيعة ولبقيّة المخلوقات في خريطة المقدّس لديها، وبالتالي لا يوجد مكان لهذه الأمور في الأخلاق والتشريعات الدينية الإبراهيمية إلا لماماً. الاهتمام الهامشي بهذه المسائل يرتكز فقط على النفع الاقتصادي المتأتي من الطبيعة أو من الحيوان لا أكثر.

في الإناجيل المُعتمدة من قبل الكنيسة الكاثوليكية مثلاً، لا يوجد أي دعوة للاهتمام بالطبيعة أو ببقيّة المخلوقات. ومن المرّات القليلة التي يُذكر فيها الشجر في الأناجيل هي في قصّة قيام يسوع الناصري بلعن شجرة تين لأنه أتى إليها جائعاً ولم يكن فيها ثمر، فقال لها :"لها لا يكون منك ثمر بعد الى الابد. فيبست التينة في الحال". (متى 21 : 18 – 20) (مرقس 11: 12 – 14 و 20 – 24).

وفي القرآن، يوجد العديد من الآيات التي تحوي كلمات مثل "حُرّم عليكم" و"قاتلوا" و"جهنّم" و"الكافرين" فيما لا يوجد أي آية صريحة تتحدّث عن ضرورة احترام الطبيعة. بعض الآيات القليلة فيها ذكر مبهم

لـ"الإفساد في الأرض" الذي يأتي في سياق سياسي-اجتماعي-ديني لا سياق بيئي، لكن يرتكز عليها بعض الدعاة الإسلاميين للقول أنه هنالك نظرة بيئية في الإسلام.

في الواقع، وبالمقارنة مع المسيحية واليهوديّة، أتى الإسلام بنظرة أكثر تقدمّية نوعاً ما تجاه البيئة، خاصة أنه خرج من بيئة صحراوية تندر فيها الحيوانات والشجر حيث أن الحفاظ على هبات الطبيعة القليلة هناك هو ضرورة للحياة نفسها. وهنالك بالتالي بعض الأحاديث المنسوبة للنبي التي توصي بعدم قطع الأشجار (إلا إن كانت تحول بين المسلمين والمشركين طبعاً) وبالرفق بالحيوانات الأليفة كالهرر (رغم أن الرسول اعتبر أن الكلاب نجسة)، والرفق بالحيوانات التي يُأكل لحمها. لكن جوهر الفلسفة الدينية الإسلامية كما نلاحظ يبقى ضمن إطار مركزيّة الاستغلال البشري لها، أي قائم على علاقة تسخير للطبيعة في خدمة الإنسان. وهذا واضح في معظم الأحاديث ومنها تلك التي يرتكز عليها "البيئيون الإسلاميون" مثل حديث "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل". (البخاري 475-79) وحديث "من أحيا أرضاً ميتة فهي له".

Figure 14: ملح هذه الأرض، ملح هذه الأرض...

بالارتكاز على نفس الطريقة، اعتمدت الفلسفة المادّية المقاربة ذاتها تجاه الأرض والمخلوقات الأخرى، جاعلة الإنسان وحده مركزاً للكون ورأساً له. "الحقوق" في الفلسفات المادية المختلفة، هي فقط للإنسان، أما الأرض وبقية المخلوقات فلا حقوق لها. لم تستطع الفلسفة المادّية ان ترى الأرض كأكثر من "صخرة" متاحة للاستغلال إلى ما لانهاية.

في ظلّ الفلسفة الماديّة، ليس هنالك من فارق بين اليمين واليسار: فيما يعتبر اليمين أن السوق الحرّ كافٍ لتوزيع الثروات، يرى اليسار أن الحلّ يكمن في التوزيع العادل للثروات وأدوات الانتاج عبر الدولة أو جهاز آخر، لكن كلا التيارين ليس لديهما أي موقف حقيقي أو بيئي من اقتصاد النموّ بحدّ ذاته. والنموّ الاقتصادي والسكّاني اللانهائي في كوكب محدود الحجم، كما يعلم الآن أي طفل تجاوز صفّ الحضانة، هو أمر مستحيل.

حتى الحركة البيئية التي أتت كردّ فعل على رأسمالية الاستهلاك أتت بنفس نمط التفكير. خطاب الحركات البيئية التقليدية يدعو للاهتمام بالأرض، لا رفقاً بالمخلوقات الأخرى أو احتراماً للأرض نفسها ولقدسيّتها كمنزل للجميع، بل من أجل الحفاظ على استدامة الاستغلال الاقتصادي وعلى مستوى المعيشة.

بعد ألفي وخمسمئة عام على ولادة الأديان الإبراهيمية، ومئتين وخمسين عام تقريباً على بداية الثورة الصناعية، تكاثرنا وملأنا الأرض وتسلّطنا على البرّ والبحر والجوّ والمخلوقات الأخرى كأننا ننفّذ حرفياً وصية يهوه- الله في قصّة الخلق التوراتية. كل الدعوات التي أُطلقت حتى الآن للحدّ من النموّ الجنوني والهوس الاستهلاكي لم تنفع، رغم أن الأرض تكاد تتحوّل إلى قطعة خردة كبرى عائمة في الفضاء. لقد

دمّرنا الأرض لدرجة أنه لم يعد ينفع معها أن ندعو فقط للاهتمام بالطبيعة، أو لتغيير عاداتنا الاستهلاكية؛ بات من الضروري أن نحفر عميقاً في وعينا الجماعي لنستكشف مكمن الخلل الذي قادنا لارتكاب هذه الجريمة من الأساس. ومكمن الخلل هذا، برأينا المتواضع، هو أننا في المكان الأعمق فينا، نمّينا قناعة تقول أننا رأس هذا الكون ومركزه، رأس هذه الأرض ومركزها. ونحن في الواقع... لسنا سوى أبناء لها، أبناء الأرض، لا أسيادها.

* * *

3) اقتلاع جذورنا من التراب، فلنتذكّر جرحنا الثاني...

Figure 15: حين نستهلك كل شيء، هكذا سيكون مستقبلنا...

حين وضعت الفلسفتين الإبراهيمية والمادية الإنسان على رأس الكون واعتبرت أن له حقّ إلهي أو طبيعي ما باستغلال الأرض والمخلوقات الأخرى من دون أي مراعاة على الإطلاق، نسفت علاقة الاحترام والعطاء المتبادل التي كانت تجمعه بالعالم الطبيعي من حوله وحرمت المخلوقات الأخرى في هذه الحياة من حيوانات ونباتات وأنظمة إيكولوجية، من حقّها بالحياة من دون أي تدمير واستغلال على يد أخاها الأكبر، وهو في هذه الحالة الإنسان نفسه.

إن نظرتنا للأرض والمخلوقات الأخرى تحدّد إلى حدّ بعيد طبيعة علاقتنا معها؛ حين نعتبر أن الإنسان هو المركز والرأس والفاعل فيما الطبيعة (وبقية المخلوقات) هي الخادم والطرف والمفعول به، فذلك يعني أنه هنالك نوع واحد من العلاقة فقط التي يمكن بناؤها بين الإثنين: علاقة الخادم بالسيّد، أو بعبارة أدقّ، علاقة استغلال – عبوديّة من طرف واحد. حين وضعنا الإنسان في مركز الكون، أوهمناه أنّه ليس جزء من الطبيعة بل سلطة عليها، ما أنتج في نهاية المطاف حضارة تقتات على التدمير المباشر للأرض من دون وازع روحي أو أخلاقي أو منطقي أو قانوني ومن دون أي تأنيب للضمير. حين جعلنا أنفسنا محوراً للكون، نميّنا داخلنا غرور شغلنا بمشاكلنا الصغيرة لدرجة أننا لم نعد نلاحظ ما نفعله من جرائم بحق هذه الأرض ومخلوقاتها، ناهيك عمّا نفعله بحقّ بعضنا البعض. حين فصلنا الإنسان عن الطبيعة وحوّلنا دوره من راع وحارس للأرض إلى متسلّط ومهيمن عليها، بنينا منه فصيلة طغيان على الكوكب، طغيان لا يوقّر تسلّط الإنسان على أخيه لأن الطغيان بطبيعته لا يعرف حدود.

لهذا السبب وصفنا المركزيّة المستجدّة للإنسان على الطبيعة بأنها الجرح الثاني في الوعي البشري؛ فهي نقلتنا من إنسان كان، بطريقة فطرية وحتى غير واعية أحياناً، يعيش بتناغم مع الطبيعة لمئات آلاف السنين، إلى إنسان يستغلّ ويدمّر بكامل وعيه منزله الوحيد في هذا الكون. إنسان اليوم، الذي يعتبر نفسه الإنسان الأكثر معرفة وتقدّماً ووعياً في التاريخ، هو الإنسان الوحيد الذي يكاد يفني نفسه بنفسه والذي تهدّد أفعاله بإفناء كل الكوكب معه.

إن مركزية الإنسان في الفكر السائد اليوم، وما يرافقها من تغذية هائلة لغرور في غير محلّه، تمنعنا عن رؤية الصورة الكبرى المتمثّلة في أننا لسنا سوى كائن واحد من أصل مليارات الكائنات الأخرى التي لها الحقّ بالحياة مثلنا على هذه الأرض. الأرض وخيراتها ليس منّة منّا كما نكاد نعتقد أحياناً، بل إن وجودنا بحد ذاته هو منّة ونعمة من الأرض لنا. هديّة الحياة التي وهبتنا إياها أمّنا الأرض يجب معاملتها كأي هدية جميلة أخرى: بامتنان ورفق واحترام ودهشة ومحبّة، من دون التفريط بها.

حين فصلنا أنفسنا عن الطبيعة واعتبرنا نفسنا أسمى منها وُلد فينا جرح عظيم، جرح انفصال الجنين عن رحم أمّه، وجرح الإبن الضال الذي ينكر والديه حين يكبر. بالطريقة نفسها التي اقتلعنا فيها أنفسنا من السماء، اقتلعنا أيضاً جذورنا من التراب ثم انقضّينا عليه لنستخرج منه ما اعتقدناه أنه ثروة؛ تارة أردنا معادنه وذهبه المدفون وتارة أردنا نفطه وتارة أخذنا التراب نفسه... لكننا في هذا البحث المحموم خسرنا ما هو في الواقع ثروتنا الحقيقية والوحيدة: حبل صرّتنا مع الأرض التي تغذّينا وتعطينا إنسانيتنا نفسها. هذا هو جرحنا الثاني. فلنتذكّره جيداً...

الفصل الرابع

حرب على الذات

Figure 16: هذه الذات من ذاك الشعاع، فكيف نرفضها؟

* * *

1) هل يحتاج الإنسان لخلاص وجنّة؟

عالم الثنائيات المتصارعة الذي رسّخته الفلسفات الإبراهيمية انعكس صراعاً داخل الذات الإنسانية نفسها إذ خلق فيها وهم رؤية الأمور في ثنائيات الحلال والحرام، الخير والشرّ، الغريزة والعقل، الجسد والروح، الإنسان والحيوان، التوحيد والشرك...ألخ. هذه الثنائيات المطلقة تؤدّي بشكل طبيعي إلى رفض الأجزاء التي نعتقدها "شريرة" في الذات البشرية والتمسّك بتلك التي نعتبرها "خيّرة"، وهذا أمر إيجابي من حيث المبدأ. لكن حين تشمل "الأجزاء الشرّيرة" أمور هي من صلب الذات البشرية، مثل الجسد، الجنس، العقل، المتعة، الفنّ، الروحانيّة، الغضب، الخوف والحبّ، تكون النتيجة الوحيدة هي رفض جزء أساسي من الذات إن لم نقل أنها إنكار للذات البشرية بأكملها.

الفلسفات الإبراهيمية السائدة، برأينا المتواضع، لا تدعو أتباعها إلى فهم الذات من أجل التغلّب على نواقصها (إلا لدى بعض الطوائف المتمرّدة فيها مثل الغنوصيين المسيحيين والصوفيين المسلمين)، بل هي تدعو وتشجّع الإنسان على شنّ حرب على ذاته بكل معنى الكلمة. الدعوة الحربية هذه ليست مجرّد زلّة فكرية أيضاً، بل هي من صلب العقيدة الإبراهيمية لسبب بسيط: الأديان السماوية تقوم في الجوهر على اعتبار الذات البشرية ناقصة، مشوّهة، وخطّاءة. إن علّة وجود الأديان الابراهيمية نفسها هي في فكرة الخلاص، خلاص الفرد من النار ومن الخطيئة والمعاصي التي ارتكبها خلال وجوده في جسد أرضي فانٍ.

وعد "الخلاص" أو "الجنّة" من جهة، وإنكار الذات من جهة أخرى، هما وجهان لعملة واحدة لأن ما هو ناقص ومشوّه هو ما يحتاج لخلاص لا ما هو طبيعي أو كامل. بعض المذاهب المسيحية مثلاً تقوم بوضوح على مفهوم "الخطيئة الأصلية" التي تعتبر أن كل إنسان هو آثم من اللحظة التي يُولد فيها (حتى قبل أن يرتكب أي خطيئة فعليّة في حياته)، لأنها تؤمن أنه ورث خطيئة عصيان الله وسقوط آدم من الجنّة. وفي الإسلام، الهدف الوحيد للإنسان هو عبادة الله، بحسب الآية التي تقول "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"، لأن كل الغاية في نهاية المطاف هي أن يظفر الإنسان بالجنّة – أن يحقّق خلاصه. والجوهر في الحالتان واحد، النفس البشرية خطّاءة وتحتاج لبعبع كبير حتى تنتظم.

Figure 17: العالمة والفيلسوفة هيباتيا الاسكندرانية التي اغتالتها الكنيسة في القرن الخامس ميلادي رافضة علمها وفلسفتها وروحانيتها الخاصة، وهي ثلاث خصائص-نتاجات طبيعية للذات البشرية.

وهنا، في هذا المكان بالذات، نحن نقف أمام جوهر الأديان الإبراهيمية: هي تقدّم نفسها، بأنبيائها وتعاليمها وكتبها ومحرّماتها، على أنها الجسر الذي يسمح للإنسان، الناقص جوهرياً، بأن ينتقل من الخطيئة إلى الخلاص. وهذا الجسر للأسف يمرّ عبر الحرب على الذات. قد يعترض أحدهم على هذه النقطة ليقول أن معظم الأيدولوجيات والعقائد في العالم قامت على وعد بتحسين حياة الإنسان أو بتحسين الإنسان نفسه، وبالتالي تدعو لمواجهة مع الذات بطريقة أو بأخرى، وهذا صحيح. لكن هنالك فرق شاسع بين أن نقول للإنسان أنه يمكن له أن يرتقي، أن يتحسّن، وبين أن نقول له أن جوهره ذاته، أن عمق وجوده، أن طبيعته نفسها هي خاطئة وناقصة.

هذا المفهوم المأزوم (النقص الجوهري للإنسان) يفتح الباب أيضاً على مشاكل أخرى لأن الوعد بالخلاص لا يقتصر على العالم الآخر بل يبدأ في الواقع من هذا العالم. الدين الإبراهيمي فيه نبرة تحاول إيهام كل مؤمن أنه وصي على "البشرية القاصرة" جاعلة من واجبه هداية "الآخرين" إلى طريق الحق وتعبيد الطريق ليوم الخلاص الأكبر – القيامة. وفي المحصّلة، سنجد أمامنا الوصفة المثلى لتزكية الصراع بين البشر وجعلهم أسرى مؤسّسات وسلطات وأشخاص آخرين يدّعون أنهم طريقهم الوحيد للخلاص، والتاريخ خير مثال على ذلك.

حين ندرس النتائج التاريخية لعقيدة إنكار الذات الإبراهيمية، سنجد صفحات مليئة بالقمع الديني النابع من رفض أمور جوهرية في الذات البشرية، وقد طاول هذا القمع الدين (المختلف) والروحانية الحرّة والجسد والعقل والعلاقات الجنسية والأنثى والعلم والفنّ والحريّة. تاريخ السلطة الدينية المسيحية في القرون الوسطى، كما تاريخ السلطة الإسلامية في قرون لاحقة، حافل بتدمير النتاج الفنّي (مثل تدمير المعابد القديمة وتحريم الفنون) وإحراق العلماء ونفي الفلاسفة والتنكيل بالمعلّمين الروحيين المتمرّدين على البلاط. وها هو نفس المنهج يعود اليوم، على شكل تيارات دينية متشدّدة، متوعداً بالويل والثبور وعظائم الأمور إن لم يعد المجتمع إلى عادته القديمة بإنكار ذاته؛ يدعون المرأة لإنكار جسدها وكرامتها وحريتها ويدعون الجميع لإنكار عقله كما يدعون أنفسهم لرفض كل تعبير روحي أو علمي أو فنّي يندرج ضمن إطار "الخطيئة".

لكن أي خلاص هذا الذي يرتكز على إقناع الإنسان بنقصه الجوهري، وأي نوع من الجنّة هي حين يكون الوصول إليها مرهون بمحاربة أكثر الأمور حميميّة وإنسانيّة فينا وفي الآخرين؟ "إنكار الذات"، مع كل ما يعنيه ذلك من نكبة، هو الجرح الثالث على جبيننا...

* * *

2) كي لا يكون العلم دين آخر...

استكمالاً للحديث عن الجرح مع الذات، نجد أن النظرة المادية في حقبتنا الحالية تجاهها ليست أفضل حالاً من نظيرتها الإبراهيمية. المنظور المادي للأمور في فترة ما بعد الحداثة تخطّى حتى الفلسفات الوجودية التقليدية، التي وإن كانت لا تعترف بالبعد الميتافيزيقي للإنسان إلا أنها كانت تمتلك رؤية عميقة للذات والوجود. لكن المنظور المادي السائد اليوم على جميع مستويات المجتمع لا يرى من الذات أبعد مما يمكن أن تراه العين؛ هو يقف عند حدود الشكل الخارجي لكل شيء. المنظور المادي السائد يحاول كل يوم أن يقنعنا، بطريقة أو بأخرى، بأننا ناقصين نقصاً جوهرياً ونحتاج لعمليات تجميل وتنحيف وماكياج وسمرة وسيارات لامعة وجيوب منتفخة وعلامة تجارية شهيرة على ثيابنا و1000 صديق(ة) على المواقع الاجتماعية لكي نكون على ما يرام. هذه النظرة تقوم في الجوهر، كما الفلسفات الإبراهيمية تماماً، على فكرة نقص الإنسان وضرورة خلاصه.

في الواقع، كل الاقتصاد المعاصر يقوم على إقناعنا بأننا ناقصون ونحتاج لشيء ما يكملنا؛ هذه الطريقة الأسهل ليقنعنا مدراء الشركات كل يوم بشراء أمور لا نحتاج فعلياً لها: عبر إيهامنا أنها تضيف شيئاً ما علينا.

Figure 18: قد يكون المستقبل على هذا الشكل...

رفض الذات هو الهواية المفضّلة لحضارتنا المعاصرة، وكأن مجتمعنا يردّد مع بطل رواية نادي القتال لتشاك بالانشيهوك: "كان لدي كل شيء، ستيريو حديث، خزانة محترمة، كل شيء. كنت احتاج بعد للصوفا المثالية لأصبح كاملاً". أي نظرة سريعةعلى الغابة الإعلانية – الإعلامية التي نعيش فيها تظهر كم أن جوهر الثقافة المادية السائدة يقوم على الوعد بخلاص أو جنة ما؛ إن لم يكن الوعد وعد "خلاص" من الوزن الزائد (الخطيئة الأكبر بالمفهوم المادي المعاصر)، سيكون وعد الظفر بجنّة السيارة الرياضية، البيت المثالي، الجامعة الأفضل، العطلة الأمتع، التلفزيون الأكبر، وفي بعض الحالات الزوج والزوجة المثالية. ثقافتنا المعاصرة مهووسة بفكرة "ملاحقة" شيء ما بشكل محموم لدرجة أننا حوّلنا حاضرنا إلى جحيم من دون أن نربح المستقبل.

الإيمان بالنقص الجوهري للذات وضرورة خلاصها عبر الوسائل المادية والتكنولوجيا يبلغ ذروته مع طرح "الفرادة" Singularity للعالم الأميريكي رايموند كورزويل. يعبّر كورزويل، الذي أصبح رمزاً للحماس التكنولوجي المعاصر، عن زبدة الثقافة المادية السائدة بالقول في كتاب شهير له أن التكنولوجيا والتقدّم العلمي ستتيح للبشر خلال القرن الحالي التغلّب على نواقصهم البيولوجية و"ترقية" عقولهم وأجسادهم عبر مزج التكنولوجيا بالبيولوجيا. يتوقع الكاتب الأميركي أنه خلال النصف الثاني من القرن الواحد والعشرين ستتمكّن التكنولوجيا من خلال مزيج من علم الروبوتات، علم الجينات والذكاء الاصطناعي، من تحقيق الحياة الأبدية للبشر. تلك ستكون متاحة، وفقاً لكورزويل، عبر نقل العقول والذكريات الشخصية من الأجساد البيولوجية إلى أجساد الكترونية لا تفنى. عالم كورزويل المستقبلي لا يوجد فيه مرض أو موت أو ألم لأن التكنولوجيا كفيلة بحلّ كل تلك المصاعب. من المثير للانتباه في نظرية كورزويل، أنه يتوقّع أيضاً بروز مجموعات من البشر ترفض التحوّل إلى روبوتات، لكنه يستطرد أن مصيرها سيكون في أفضل الأحوال عيشها في "محميّات بيولوجية" صغيرة على هامش المجتمع الممكنن.

جنّة "الفرادة" التكنولوجية ليست غريبة عن الثقافة الماديّة المعاصرة، فهي ونظيرتها الإبراهيمية تنطلقان من المكان نفسه: نقص الإنسان. وتصلان بالتالي إلى الوعد نفسه: الخلاص والحياة الأبدية. لكن هل يمكن للذات البشرية أن تتصالح مع نفسها وتنطلق حرّة مبدعة إن كان كل ما يحرّكها هو كآبة رفض ذاتها وقلق خلاصها والخوف على مصيرها بعد حياتها الأرضيّة؟

* * *

3) معرفة الذات، لا إنكارها...

حين سؤل الفيلسوف اليوناني أفلاطون، ما الذي يختصر كل الحكمة الفلسفية في العالم، أجاب بكلمتان فقط: "إعرف نفسك". بهذا التعبير البسيط لخّص أب الفلسفة حكمة مدرسة إنسانية موغلة في القِدم، مدرسة ابتدأت مع بداية الوعي الإنساني نفسه وانطلقت من معرفة الذات، لا من إنكارها، كسبيل لفهم الكون والوجود. الذات البشرية في هذه الرؤية هي كون مصغّر، فهمها هو فهم للوجود نفسه، واختراق عباب ألغازها هو مدخلنا إلى الذات الأزلية اللانهائية التي تضخّ الحياة في قلب الكون.

معرفة الذات، الداخلية والخارجية، هي فلسفة ضرورية لعالم اليوم إن أراد الإنسان التغلّب على الجرح مع ذاته؛ لأن هذه المعرفة "الطبيعية" الخارجة عن نطاق الأيدولوجيا والخرافة هي وسيلتنا الأمثل لنكتشف كم أن هذه الذات الشاسعة داخلنا فيها كل الخير وكل الحقّ وكل الجمال ولا تعاني من نقص جوهري أو خطيئة أصلية أو تشوّه خلقي يستوجب شنّ حرب عليها. هذه الذات هي أجمل ترجمة للعقل الكوني المبدع، هي من نفس الجوهر الكوني المقدّس وشعاع لطيف منه، حتى ولو كانت أفعالها وأفكارها تحجب أحياناً كل هذا البريق...

Figure 19: كل أسرار الكون فيها...

هذا لا يعني أنه لا يجب الاعتراف بأن الإنسان له شوائبه، بل على العكس تماماً. الإنسان يغضب ويحزن ويفرح ويحبّ ويكره، يميت كما يحيي، ويخلق كما يدمّر. بتعبير الفيلسوف فريدريش نيتشه "الخليقة والخالق متّحدان داخل الانسان: الإنسان خليط من مادة وشظايا وزوائد وطين وروث وسخافة وفوضى؛ لكن في الانسان أيضاً مبدع ومصور وحدّة مطرقة وإله متفرّج ويوم سابع."

إن الاعتراف بهذا التناقض داخل الإنسان هو جوهر الفلسفة التي تقوم على "معرفة الذات". فلكي نتجاوز شوائبنا كبشر، علينا أولاً أن ندرك الطبيعة الحقيقية للإنسان وألا نقع في فخّ اعتباره ملاكاً بالفطرة أو شيطاناً بالولادة، هو ليس هذا ولا ذاك ولا حتى مزيج من الاثنين، هو أعقد من ذلك بكثير. معرفة الذات هي التي تتيح لنا فهم أنفسنا والتعامل معها، وربّما ستتيح لنا تجاوز نواقصها في يوم ما. لا يمكن التغلّب على أي شائبة في الذات البشرية عبر جلدها ورفضها وإنكارها والإغلاق عليها في مؤسسات دينية أو حتى أجساد ألكترونية باردة ورمي مسؤولية أخطائها على إبليس ما. هنالك كمّ هائل من العلوم الإنسانية والروحيّة والتأمليّة المتوافرة اليوم بين أيادينا والتي تقدّم لنا القدرة على فهم الذات وسبر أسرارها والارتقاء بها كما لم يسبق لنا من قبل، المهمّ هي النقطة التي ننطلق منها لأننا رأينا واختبرنا كم أن ذلك يؤثّر على علاقتنا مع ذاتنا ومع الآخرين (ونتائج عقيدة "النقص الجوهري" هي نموذج حيّ أمامنا.)

الاعتراض على "النقص الجوهري" في الذات البشرية، لا يعني كذلك الاعتراض على مفهوم الخطأ في المطلق. وهنا نعيد لنقول أن الذات البشرية قادرة على ارتكاب الأخطاء وترتكبها دوماً، لكن علينا أن نحرّر مفهوم الخطأ من سطوة الثنائيات المطلقة للفلسفة الإبراهيمية. الإنسان يخطأ، هذا كل ما هو عليه الأمر، الأفعال الصغيرة التي نقوم بها كل يوم ليست جزء من معركة غيبيّة أزليّة بين الخير والشرّ.

تحرير مفهوم "الخطأ" من الثنائيات المطلقة يستوجب إعادة تعريفه، وهذا أمر سهل لأن الطبيعة تقدّمه لنا أينما التفتنا. الخطأ الحقيقي، ليس ما يسبّب تعارضاً مع نصوص كتبها بشر مثلنا، بل هو "ما يسبّب اختلالاً (أو أذية) في التوازن الطبيعي والكوني". هذا التعريف للخطأ يخرجه من نطاق "العصيان" (عصيان الإله، رجاله، كتابه أو تعاليمه) ليضعه في نطاق "التناغم" الكوني والإنساني، أي الإطار الطبيعي والصحيح له. وهو بذلك يحرّره أيضاً من عباءة "الطاعة"؛ المفهوم الذي استعملته الفلسفة الإبراهيمية لفترة طويلة لضمان خضوع الناس لسلطة مفاهيمها (مثل الله) ومؤسساتها وطقوسها وقوانينها.

هذا التعريف أيضاً يغيّر الطريقة التي نتعامل بها مع نتائج الخطأ: مفهوم "**المسؤولية**"، لا مفهوم "التوبة" و"القضاء والقدر"، هو الوجه "التصحيحي" لأي خطأ. إذ بما أن من يخطىء، وفقاً لتعريفنا للخطأ، هو من يمسّ أو يؤذي التوازن الطبيعي القائم، سواء كان اعتداؤه يطال البشر أم يطال الطبيعة، فهو بالتالي مسؤول عن تصحيح خطئه عبر إعادة التوازن الذي فقد أو التعويض عنه. هذه النظرة ككل تضفي مرونة كبيرة على تعريفنا للخطأ والصواب بشكل يسمح لهاذين المفهومين بالتطوّر وفقاً للزمان والمكان والحاجات البشرية والبيئية المختلفة.

وفقاً لهذا المفهوم، نحن نخطأ، لا لأننا نعاني من نقص جوهري، ولا لأننا كاملين أيضاً بل لأن هذا جزء من طبيعتنا البشرية بكل بساطة. في فلسفتنا "الطبيعية"، الخطأ والتعلّم منه هو جزء جوهري من تجربتنا هنا في هذا العالم وهو أحد الأسباب الأساسية لوجودنا هنا أصلاً؛ من لا يخطأ لا يتعلّم ولا ينمو ولا يتقدّم ونحن هنا لنخطأ ونتعلّم وننمو ونتقدّم... وربّما سنتعلّم ونرتقي لدرجة أنه قد تنبت لنا أجنحة في المستقبل، من يعلم؟ لكن حتى ذلك الوقت، علينا أن نتذكّر أننا مجرّد بشر... وأننا من جوهر هذا الكون أيضاً، من جوهر الشمس والجبال والزهرة والمجرّات وكل شيء آخر؛ نحن ثالوث خلّاق من حيوان وإنسان وإله في الوقت نفسه. علينا قبول الأجزاء الثلاثة من دون إنكار لأي منها. لا يمكن لأجزاء منّا أن تحارب أجزاء أخرى فينا، لا يمكن لنا أن نحارب أنفسنا. جرحنا الثالث كان مع ذاتنا، فلنتذكّره جيداً...

* * *

كلمة أخيرة

خطوة أولى في درب طويلة

لقد ابتدأنا هذه السلسلة بعنوان يحمل الكثير من الطموح والأمل: "نحو التصالح مع الذات والأرض والسماء". على متن الصفحات السابقة، عرضنا ما اعتبرناه جروح كونية كبرى على جبين الوعي البشري، جروح ذرفنا بسببها ومن أجلها الكثير من الدماء والدموع.

في كل حلقة من السلسلة، حاولنا "تشخيص" كل جرح على حدة في محاولة لكشف الأسباب العميقة لكن الصامتة التي تقف خلف معظم مشاكلنا المعاصرة. قلنا أن جروح الإنسان هي ثالوث يقطر ألماً؛ جرح يعلو للسماء، آخر يغرز في الأرض، وثالث يحرق الذات الإنسانية نفسها.

السؤال الأساسي والطبيعي بعد كل هذا الحديث هو "إلى أين نتجه من هنا"؟

القارىء(ة) الذي يتوقّع في السطور التالية إجابة قصيرة ومبسّطة على هذا السؤال سوف يخيب أمله، لأن الإجابة الحقيقية ليست موجودة في هذه الخاتمة ولا في أيّ نصّ آخر. أولى حروف الإجابة ابتدأت في الواقع منذ السطر الأوّل في هذه السلسلة، وتدرّجت أبجديتها مع كل مقال لاحق فيها؛ حين يجمع القارىء(ة) هذه الحروف قد ينجح في تركيب كلمة-إجابة منها، لكن كل إجابة ستحمل على الأرجح إسماً مختلفاً. هذه الإجابة،

كما كل الإجابات الوجوديّة، لا تنبع من النصوص، بل هي في القلوب والعقول، تعيش في الروح صامتة داخل كل واحد(ة) منّا.

هذا لا يعني أن الإجابة على هذا السؤال هي شخصية فقط أو نسبيّة، فالإجابة الحقيقية، رغم أسمائها المختلفة، هي في الواقع واحدة. وهنا نتساءل مع القراء، هل يمكن للمجتمع البشري حالياً أن يخرج بإجابة بهذا الحجم وأن يدرك ويتجاوز جراحه لصالح بناء أسس جديدة للحضارة الإنسانية؟ ربّما، لا أحد يعلم. لكن ما نعلمه هو أن السؤال الصحيح يحمل نصف الإجابة بين طيّاته، وأن الأفراد الذين سيتكبّدون عناء البحث عن إجابة لهذا السؤال خلال السنوات المقبلة سيجدون أنفسهم يسلكون درباً طويلة وشاقة لكن جميلة، وسيكتشفون أن الإجابات التي سيحوزونها ستضع على أكتافهم عبءً لا يستطيع حمله إلا من يحمل كلّ قوّة الكون في خفقات قلبه(ا)... الاضطلاع الناجح بالعبء المذكور قد يغيّر وجه التاريخ ويشقّ عباب فجر جديد للمجتمع البشري ولكل الأرض وكائناتها...

جراحنا ستلتئم، هذا هو مصيرنا. التغلّب عليها يُكمل فينا دائرة القدر...

خيوط الصبح تتسلّل، فهل نراها؟